تقديم طاعة على أخرى أو تركها
نظراً للزمان والمكان والأحوال

تأليف
الدكتور عبد الله العبادي

نشر وتوزيع
دار الثقافة
قطر الدوحة - ص.ب ٣١٢٣

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

كافة حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على نعمة الإسلام ، ونشكره على ما شرع لنا من عبادات وأحكام ، والصلاة والسلام على سيد الأنام . وعلى آله ، وصحابته الكرام . الذين بَلَّغوا رسالته للأنام .

وبعد ، فإن ما شرعه الله تعالى لهذه الأمة من عبادات ، ومعاملات وأخلاق ، وأحكام ما لو تمسكوا به ذلك التمسك الذي يجب أن يكون ، أو كما ينبغي ، لكانوا من أسعد الناس عزًا وكرامة ، وأوفرهم حظًا ، وأحسنهم عيشا ، وأكثرهم أمنا ، وطمأنينة ؛ ولو أنهم صانوه ، لصانهم ، كما صان سلفهم الصالح ، ولو أنهم عظموه في النفوس لعظمهم ، ولعرفوا مكانتهم بين الأمم ، ولكنهم هانوه فهانوا على غيرهم ، وتنصلوا من مبادئه العظيمة ، فانتصر عليهم عدوهم ، وعمل على إذلالهم ، وتركوا تعاليمه الحكيمة ، فأحوجهم الزمان إلى غيرهم .

ومن مميزات هذا الدين العظيم ومن محاسنه أن الشرع الحكيم عندما وضع أسسه ومبادئه العظيمة بناها أساسًا على مصالح العباد في المعاش والمعاد ، وربطها بها ارتباطًا كليًا بينًا واضحًا .

فهو عندما شرع الشرائع ، وقنن القوانين ، ووضع الأحكام ، وفرض الفروض ، وأوجب الواجبات ، راعى في كل ذلك ، ووضع في الاعتبار مصالحهم المتعددة ، وظروفهم الطارئة ، وأحوالهم المختلفة في كل زمان ومكان ، فعاملهم ، وجازاهم بالثواب ، والعقاب على هذا الأساس القويم ، ومن منطلق هذا المبدأ العادل ، فعالج القوي بما يقوم اعوجاجه ، ويوقفه عند حده ، وعالج الضعيف بما يناسبه ، ويصلح حاله ، وكافأ أهل الصلاح المستقيمين على أعمالهم بما يستحقون من ثواب في دنياهم . وأخراهم ..

فهي (الشريعة) كما يقول ابن القيم ـ عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة ، وإن أدخلت فيها بالتأويل ، فالشريعة عدل الله بين عباده ، ورحمته بين خلقه ، وظله في أرضه ، وحكمته الدالة عليه ، وعلى صدق رسوله ﷺ أتم الدلالة ، وأصدقها وهي نوره الذي أبصر به المبصرون ، وهداه الذي اهتدى به المهتدون ، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل ، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه ، فقد استقام على سواء السبيل »[1] .

وما قاله هذا الإمام حق ، وصدق فإن العلماء ورثة الأنبياء ، ينظرون ببصيرتهم بما نظر به الأنبياء ، ويحسون بما أحس به المرسلون . فهم الذين يعرفون هذا الدين على حقيقته ، كما يعرفون الدنيا على حقيقتها ، ويعرفون الدار الآخرة على حقيقتها ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « العلماء ورثة الأنبياء » ولولاهم لما وصل إلينا هذا الخير كله دون أن نتعب أنفسنا ، أو نشق عليها بالتأليف ، والتنقيب ، وبيان الصالح من الأقوال والأراء من الطالح ، والحق من الباطل ، والصواب من غيره ..

وليس كل مجتهد يوفق لإدراك كنه هذا الدين العظيم ، وأسراره فيما شرع ، لذلك جاء في الحديث « من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين » وجاء « إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولايعطي الدين إلا من أحب » .

فالتفقه في الدين أكبر نعمة على العالِم، لتوفيق الله له في الوصول إلى أسرار هذه الشريعة الغراء ، لذلك نرى بعض المذاهب كالمذهب الظاهري ، لم يدم طويلا ، حيث إن فقهاءهم لم يوفقوا إلى فهم النصوص فهمًا صحيحًا

---

(١) إعلام الموقعين .

باستخراج كثير من المسائل التي تدل على كمال هذا الدين وعظمته ، وتبين حِكَمه ، ومعجزاته فيما شرع لهذه الأمة ، لتمسكهم بظاهر النصوص ، دون العناية بالمعاني ، واستنباط الأحكام ، والمسائل المفيدة ، وإدراك كنه هذا الدين ومغزاه ، وأسراره والفهم الصحيح الصائب الذي لا يتعارض مع ما جاء به من حكم وأسرار بل وقفوا على ظواهر النصوص ، وجمدوا عليها ، لذلك انقرض ذلك المذهب ، ولم يعد له وجود ، كما انقرض غيره ممن لم يسلكوا المسلك الحق ، والفهم الصحيح ولا مجال هنا لكي نذكر تلك المسائل التي جمدوها ، وأخذوا بظاهر النصوص منها .

وعندما أرسل سبحانه رسوله بالهدى ودين الحق وجعله خاتم الأنبياء والمرسلين ، علم سبحانه أن هذا الدين ، سيستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فجعله صالحا لكل زمان ، ومكان ، لا تتعارض أحكامه ومبادؤه ، وأسسه مع مصالح الناس ، وشئون حياتهم ، وحاجتهم وإن اختلفت العصور ، وتجددت الحضارات ، وتنوعت المتطلبات ، فهو الدين الخالد ، والشريعة السمحة التي لا غنى للناس عنها في كل العصور ، والأزمنة ، وإن قالوا ما قالوا ، وكتبوا ما كتبوا ضده ، واعترضوا ما اعترضوا عليه بمختلف الأساليب ، واختلاق الأكاذيب ، وتنوعها .

والدليل على سماحة هذا الدين ما نراه ، وما نلمسه من مرونة لأحكامه في كثير من المجالات ، ومن تسهيل ، ويسر في أحكامه ، وواجباته نظرًا للزمان والمكان ، والأحوال ، فإننا نرى الفقهاء على اختلاف مذاهبهم متفقين على اعتبار العرف الصحيح لكل زمان ، ومكان ، وأنه دليل يرجع إليه لمعرفة الأحكام الفقهية ، بشرط عدم وجود النص في ذلك ، ويجب على المجتهد مراعاة ذلك .

يقول الإمام الغزالي في العرف « ما استقر في النفوس من جهة العقول ، وتلقته الطباع السليمة بالقبول ، أو ما يعتاده الناس ذوو الطباع السليمة من

أهل قطر إسلامي بشرط ألا يخالف نصا شرعيا » [١] .

فالعرف يتكون من تعارف الناس على اختلاف طبقاتهم عَامَّتُهُم وخاصَّتُهُم ومن ذلك قولهم « المعروف عرفًا كالمشروط شرطًا » وقولهم « العادة محكمة » وقولهم « الحقيقة تترك بدلالة العرف » ..

وقد استدل الفقهاء على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام « ما رآه المسلمون حسنا ، فهو عند الله حسن » .

يقول ابن عابدين إن المسائل الفقهية : إما أن تكون ثابتة بصريح النص وهي الفصل الأول ، وإما أن تكون ثابتة بضرب اجتهاد ، ورأي ، وكثير منها يبنيه المجتهد على ما كان في عرف زمانه ، بحيث لو كان في زمان العرف الحادث ، لقال بخلاف ما قاله أولاً ، ولهذا قالوا في شرط الاجتهاد إنه لابد من معرفة عادات الناس ، فكثير من الأحكام تختلف باختلاف الزمان ، بحيث لو بقى الحكم على ما كان عليه أولاً ، للزم منه المشقة والضرر بالناس ، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير ، ورفع الضرر والفساد ، لبقاء العالم على أحسن نظام ، وأتم إحكام ، ولهذا نرى مشايخ المذهب خالفوا على ما نص عليه المجتهد في مواضع كثيرة بناها على ما كان في زمانه لعلمهم أنه لو كان في زمنهم لقال ما قالوا أخذًا من قواعد مذهبه » [٢] .

ومن ذلك الأخذ بالاستحسان ، يقول الشاطبي « إن الاستحسان عند المالكية الأخذ بمصلحة جزئية في مقابل دليل كلي » [٣] .

ويقول السرخسي من علماء الأحناف : « الاستحسان هو العدول في مسألة عن مثل ما حكم به في أشباهها إلى خلافه لوجه أقوى ، أو هو العدول عن

---

(١) المستصفى .

(٢) رسالة العرف من رسائل ابن عابدين ١٢٦/٢.

(٣) الموافقات .

قياس وضحت علته إلى قياس خفيت علتـه ، أو إلى دليل آخر من الكتـاب ، أو السنة ، أو الإجماع ، أو العرف » (١) .

وأكثر من أخذ به هم الحنفية ، واستعمله كذلك المـالكيـة ، والحنـابلـة أمـا الشافعي فلم يأخذ به .

ومن ذلك أخذهم بالمصالح المرسلة ، يقول الشـاطبي : « المصـالح المرسلـة يرجع معناها إلى اعتبار المناسب الذي لا يشهد لـه أصل معين ، فليس لـه على هـذا شـاهـد شرعي على الخصوص ، ولا كونـه قيـاسـا بحيث إذا عرض على العقـول تلقته بالقبول » (٢) .

وفي هـذا دلالـة قـاطعـة على مرونـة هـذا الـدين ، وتيسيره ، وتسهيلـه وسماحته ، وعدم جموده كما يـدعي أعـداء الإسلام ، وقـد قـال تعـالى . ﴿ **وما جعـل عليكم في الـدين من حرج مِلَّـةَ أبيكم إبراهيم هــو سماكم المسلمين** ﴾ (٣) وقـال عليـه الصلاة والسلام « لن يشـاد هـذا الـدين أحـد إلا غلبـه . فسـددوا وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغُدْوة ، والرَّوْحة وشيءٍ من الدُّلْجلة » (٤) .

وموضوعنا في هذا المؤلف المختصر إيراد بعض المسـائل التي يمكن أن تتكيف ، أو تتغير ، أو تتبدل ، أو تترك نظرًا للزمان ، والمكان والأحوال وعندما نقول « طـاعـة فـإن ذلــك يعني كل فعــل يفعلــه المسلم ابتغــاء وجــه الله بنيـــة القربى ، والتقوى له سبحانه حتى أن المسلم عندما يأتي شهوتـه بطريق الحلال فهـو طـاعـة ، وعمل صالح في الإسلام ، ولا تعجب من هذا القول ، فـإن الرسول الكريم قـد أزال ذلـك الإشكال عن الصحـابـة أنفسهم عنـدمـا استغربـوا ذلـك الأمر عنــد قوله « وفي بُضْعِ أحدكم صدقـة » قـالوا يـارسول الله أوَ يـأتي أحـدنـا شهوتـه ، فيكون لـه بهـا أجر ؟ قـال عليـه الصلاة والسلام : أرأيتم لو وضعهـا في الحرام

(١) ... وط .

(٢) الموافقات .

(٣) ... ٧٨ .

(٤) رواه البخاري .

أيكون عليه إثم ؟ قالوا نعم ،قال « كذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر ».

وترفع اللقمة إلى فم امرأتك صدقة . وتبسمك في وجه أخيك صدقة قال عليه الصلاة والسلام : « لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق » وحتى الشوكة تزيحها عن الطريق صدقة .. فكل ذلك طاعة لله تعالى وهكذا فإن فضل الله عظيم وكرمه ليس له حدود .

والله الموفق ، وهو المستعان على ما نقول ، ونكتب ، ونعم المولى ، ونعم النصير .

أنتم أعلم بشئون دنياكم

الرسول صلوات الله وسلامه عليه إنسان من البشر خلق مما خلقوا ، وفطر على ما فطروا عليه ، فهو يأكل كما يأكلون ، ويشرب كما يشربون ، ويلبس كما يلبسون ، وينكح كما ينكحون ، وينسى كما ينسون ، ويسهو كما يسهون .. فهو يتعرض لكل ما يتعرض له البشر ، وجبل على ما جبلوا ، وكذلك سائر الأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله من قبله ، والميزة ، أو الخاصية التي اختصه الله بها هو أنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، ورسالته عامة لكافة الثقلين ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا** ﴾ (١)

وليس معنى اختيار الله له للرسالة ، وكونه خاتم النبيين ، والمرسلين أنه قد جرد من صفات البشر ، وما جبلوا ، وفطروا عليه ، لذلك يقول تعالى لنبيِّه بأن يبين للناس بأنه فرد من البشر وواحد منهم ﴿ **قل إنما أنا بشر مِثْلُكُم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد** ﴾ (٢) وكل الرسل كذلك .

لذلك نرى قوم هود عليه السلام يستغربون من أمره كيف أنه يدعي الرسالة ، وأنه واحد منهم ، وأنه يأكل مما يأكلون ، ويشرب مما يشربون وفي ذلك يقول تعالى :﴿ **وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحيوٰة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون** ﴾ (٣) .

وجاء كفار قريش وقالوا القول نفسه قالوا : ﴿ **ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرًا** ﴾ (٤) .

أي ما باله يأكل الطعام كما نأكل ، ويتردد في الأسواق لطلب العيش مثلنا ، وكان الأولى به أن يكون ملكا مستغنيا عن الطعام والكسب .

---

(١) سبأ آية ٢٨ . (٢) الكهف آية ١١٠ . (٣) المؤمنون آية ٣٣ . (٤) الفرقان آية ٧ .

كان ذلك تفكيرهم التافه الباطل المبني على الجهل ، وعدم التفكير ، وذلك ليس بمستغرب من أناس يسجدون لحجارة لا تسمع ، ولا تعي ، ولا تدرك ، ومع ذلك يتوددون إليها ، ويسجدون لها ، ويستغيثون بها ، ويطلبون منها الغفران ، ولو أن تفكيرهم هداهم إلى الحق ، والمنطق السليم ، لما قالوا مثل ذلك القول ، ذلك أن الله سبحانه لو أرسل إليهم رسولاً من غير جنسهم كالملائكة ، أو الجن مثلا ، أو من خلق آخر ، لما استطاعوا أن يتجاوبوا معه ، ولما تكيفوا معه ، ولما استطاعوا فهم ما يقول مثل شخص من جنسهم ، ومن طبيعتهم يشعر بما يشعرون ، ويتألم لما يتألمون ، ويفرح لما يفرحون .

قال تعالى : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ (١)

قال الزجاج : هو خطاب لجميع العالم . أي من جنسكم في البشرية هذا هو الكلام الحق في هذه الآية ، وهذا هو المنطق السليم .

وإني أخالف قول الجمهور في قولهم إن الخطاب موجه للعرب ، أو لمعشر قريش (٢) ذلك أنه عليه الصلاة والسلام رسول للعالمين أجمعين ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا** ﴾ (٣) ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ (٤) .

أليس في قول الجمهور سند قوي لقول المستشرقين وغيرهم من أعداء الإسلام الذين يقولون إن رسالة محمد كانت خاصة بالجزيرة العربية دون غيرها ؟

ومما يؤيد ما نقول ما ذهب إليه الزَّجَّاج في قوله تعالى في نفس الآية قوله : ﴿ **حريص عليكم** ﴾ أي حريص على إسلامكم أيها الناس كافة ، ودخولكم في

---

(١) التوبه آية ١٢٩ .
(٢) انظر فتح القدير للشوكاني ٣ / ٤١٨ .
(٣) سبأ آية ٢٨ .
(٤) الأنبياء آية ١٠٧ .

الإسلام فليس حريصا عليه الصلاة والسلام على دخول قريش ، أو العرب في الإسلام فحسب ، وإنما هو حريص على كل الناس لدخولهم في الإسلام ، لذلك قال بعد ذلك ﴿ **بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ فرحمته ورأفته عليه الصلاة والسلام لكافة المؤمنين من عرب وغيرهم .

فحرصه عليه الصلاة والسلام بالدخول في الإسلام ، ورحمته ورأفته لا تتقيد بزمان ، أو مكان ، أو شعب بعينه ، أو جنس ، أو لون .

وتأمل في قوله تعالى ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ (١) .

فهل يقول القائل إن من أنفسكم « هنا خاص بالعرب ، أو بجنس ، أو لون أو شعب بعينه ؟ أو هو يعني أنه من بني آدم وليس من جنس غير جنسهم ؟ لا شك أن المفسرين هنا مجمعون على أنه من بني آدم ، وليس خاصًا بشعب أو قبيلة ، أو جنس .

هذا هو الحق ، وهذا هو الصواب ، وهو المنطق السليم لتفسير هذه الآية .

وإذا كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه بشر فهو إذن يتصف بما يتصف به البشر ، فهو ينام ويصحو ، ويتنعم ، ويتألم ، ويفرح ، ويحزن ، ويجتهد رأيه فيخطىء ، ويصيب .

فهناك أمكنة ، وأزمنة ، اجتهد فيها الرسول الكريم ، فأخطأ ، فصوبه الله تعالى ، ولم يتركه على خطئه فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **عَبَسَ وتولى أَنْ جاءه الأعمى .. ﴾** .

فإن الرسول الكريم اجتهد رأيه في ذلك المقام ، وهو حرصه على أولئك

---

(١) الروم آية : ٢١ .

النفرمن قريش بدخولهم في الإسلام ، فجاءه ابن أم مكتوم الأعمى ، وهو يتحدث معهم ، ويرغبهم في الإسلام ، ويبين لهم مزاياه ، وحقائقه وبدأ يسأله عن أمور في الدين ولكن الرسول صلوات الله عليه أراد أن يؤخره لما بعد ذلك ، ويغتنم تلك الفرصة قبل أن تفوت (وهذا منطق كل إنسان من البشر) فإن ابن أم مكتوم كان بإمكانه أن يسأل عن أمور دينه في غير هذا الوقت ، وفي غير هذا الموقف ، فالرسول معه في المدينة ، ففي أي وقت يريد السؤال يذهب ويسأل ، ولا حرج عليه ، لأن ذلك الوقت كان مخصصا لأولئك المعاندين من قريش ، وهم بعيدون عنه كانوا بمكة فأراد أن يغتنم فرصة وجودهم في المدينة ، ليدخلهم في الإسلام . ولكن رؤية الخالق العظيم غير رؤية المخلوقين الضعفاء محدودي التفكير ، فإن الناس عند الله تعالى سواسية لا فرق بين هذا وذاك بل قد يكون هذا الأعمى المؤمن بالله يساوى المئات من أمثال أولئك ، أو يزيد ، ومن يدخل في الإسلام ، فإنما هو ينقذ نفسه من النار ، ليس له فضل على الله ولا على رسوله ، ولا على الإسلام والمسلمين قال تعالى : ﴿ **يَمُنُّون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يَمُنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين** ﴾ [١] . لذلك عاتب نبيه على اجتهاده بقوله ﴿ **عبس وتولى أن جاءه الأعمى ومايدريك لعله يَزَّكي أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى كلا إنها تذكرة ..** ﴾ .

فأفهمه سبحانه أن هؤلاء ليسوا بأعز من هذا الأعمى الذي جاء يسأل عن دينه ، ولا بأفضل منه .

ومن ذلك معاتبة الله له في قوله تعالى : ﴿ **وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه** ﴾ [٢] في قضية زينب بنت جحش التي أمره الله تعالى بأن يتزوجها بعد

---

(١) الحجرات اية ١٧ .

(٢) الأحزاب آية ٣٧ .

أن يطلقها زيد بن حارثة ، فقد اجتهد رأيه في أن يداري ذلك الأمر عن الناس ، وألا يبينه في حينه خشية القيل والقال ، فهو بشر يتألم كما يتألمون ، ويشعر كما يشعرون ، وهذا الجنس من المخلوقين لا يرحم فما أكثر كلامه عندما يسمع ! وما أكثر دسائسه عندما يحقد !

ولكنه حكم الله نزل من السماء ، فكان عليه أن يظهر ذلك الأمر في حينه للناس دون مراعاة لهم أو تردد ، فقال : ﴿ **وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه** ﴾ ولكنها الطبيعة البشرية وهو واحد من البشر !

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولولا أن ثبتناك لقد كدت تَرْكَنُ إليهم شيئًا قليلا** ﴾ [١] .

فقد روي في سبب نزول هذه الآية « أن رسول الله ﷺ كان يستلم الحجر . فقالوا : لاندعك تستلمه حتى تستلم آلهتنا ، فقال رسول الله ﷺ في نفسه : وما علي لو فعلت ، والله يعلم مني خلافه ؟ فأنزل الله هذه الآية [٢] وهذا في رأيي أنه مستبعد منه ﷺ ، ولكن هكذا ذكر المفسرون . وقيل إن سبب نزولها أن قريشا أتوا النبي ﷺ . فقالوا له : إن كنت أرسلت إلينا ، فاطرد الذين أتبعوك من سقاط الناس ، ومواليهم لنكون من أصحابك ، فركن إليهم ، فأوحى الله إليه ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك** ﴾ [٣] فإن الرسول الكريم كاد أن يجتهد في هذا الأمر ، ليبعد الفقراء من حوله ولو لفترة قصيرة ، ليجذب أولئك المعاندين إليه ، ويدخلهم في الإسلام ، ولكن الله تداركه بعنايته ، فلم يجتهد رأيه ، ولعل هذا هو الصواب في نزول الآية . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به وَلإنْ صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾ [٤] .

---

(١) الإسراء آية ٧٤ .
(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن شهاب .
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن شهاب الإسراء آية ٧٣ .
(٤) النحل آية ١٢٦ .

فإن سبب نزول هذه الآيـة أن النبي ﷺ وقف على حمزة بن عبـد المطلب عندما استشهد ، ومُثِّل به ، فقال : « والله لأمثلهن بسبعين منهم مكانك » ، فأنزل الله عليه جبريل ، وهو واقف بهذه الآيـة . فـامتنع عليـه الصلاة والسلام عن ذلك .

وقد صرح باجتهاده عليه الصلاة والسلام في الحديث الـذي روتـه أم سلمـة رضي الله عنها قـالت قـال رسول الله ﷺ : « إنمـا أنـا بشر ، وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجتـه من بعض ، فـأقضي بنحـو مـا أسمـع ، فمن قضيت لـه من حق أخيـه شيئـا ، فـلا يـأخـذه ، فـإنمـا أقطـع لـه قطعـة من النار » [١]

فالرسول إذن كان يجتهد في كثير من المسائل ، والتي لم ينزل فيهـا وحي ، فـإذا كانت صوابًـا بقى اجتهـاده كما كان عليـه ، وإذا كان خطـأ ، صـوبـه الله تعالى له ، لـذلـك كان رسول الله ﷺ معصومًـا ، لأن الله تعـالى لا يقره على الخطأ البتة .

وهو كذلك يسهو وينسى كغيره من البشر فعن ابن سيرين عن أبي هريرة قـال صلى بنـا رسـول الله ﷺ إحـدى صـلاتي العشى ، فصلى ركعتين ثم سلم ، فقام إلى خشبة معروضه في المسجد ، فاتكأ عليها ، كأنه غضبـان ، ووضع يـده اليمنى على اليسرى ، وشبـك بين أصـابعـه ، ووضع خـده الأيمن على ظهر كفـه اليسرى ، وخرجت السرعان من أبواب المسجد ، فقالوا : قصرت الصلاة ! وفي القوم أبو بكر وعمر ، فهابا أن يكلماه ، وفي القوم رجل يقال له ذو اليـدين ، فقـال : يـارسول الله أنسيت أم قصرت الصلاة ؟ فقـال : لم أَنْـس ، ولم تقصر ، فقال : أكما يقول ذو اليدين ؟ فقالوا نعم ، فتقـدم فصلى مـا ترك ، ثم سلم ، ثم

---

(١) رواه الجماعة .

كبر ، وسجد مثل سجوده ، أو أطول ، ثم رفع رأسه وكبر ، فربما سألوه ، ثم سلم .. [١] الحديث

فهو كغيره من البشر يتعرض لما يتعرض إليه البشر من الغضب والفرح ، والسهو والنسيان ولكن الذي يجب أن نعلمه ، وننبه إليه أن الله تعالى عصمه من الوقوع في المعاصي منذ صغره فلم يرتكب معصية قط ، وهي شرط من شروط النبوة ، إذ كيف يكون رسولاً ، ويعصى الله ، أو يقع في معصيه ، وهو الذي اختاره سبحانه لأداء هذه الأمانة ، وهذه المهمة الصعبة الشاقة ، وهو القدوة الحسنة .

ومن ضمن اجتهاداته عليه الصلاة والسلام (وهو بيت القصيد) قوله عليه الصلاة والسلام أنتم أعلم بشئون دنياكم » [٢] عندما اجتهد رأيه في تأبير النخل عندما وصل إلى المدينة ، فقد كانوا يُؤَبِّرون النخل في كل عام كما كانوا يفعلون ، ولكن الرسول صلوات الله عليه اجتهد رأيه ، فقال : « لو تركتم التأبير (وهو تلقيح النخل) لأثمر » فتركوه في ذلك العام ، فلم يثمر ، فقال في حديثه المشهور : « إذا أمرتكم بأمر من أمور دينكم ، فخذوا منه ما استطعتم ، وما كان من أمر دنياكم فإليكم ، أنتم أعلم بشئون دنياكم » [٢] .

فمن هذه الحادثة ، أحدث بعض الناس من الحاقدين على الإسلام ـ سواء من المسلمين الذين يَدَّعون الإسلام مجرد ادعاء ، أم من غيرهم من أعداء الإسلام ـ فجوة ، استطاعوا أن يدخلوا من خلالها لتنفيذ مخططاتهم ، وأغراضهم الدنيئة ، ومكرهم السيء وأرادوا بذلك :

أولاً : أن يفرقوا ، أو يفصلوا بين الدين ، والدولة : بأن الدين شيء ،

---

(١) رواه أحمد ومسلم .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وابن ماجه

والسياسة شيء آخر ، فالدين ليس له دخل في السياسة ، وهو المبدأ القائل (مالقيصر لقيصر ، ومالله لله) وهذا باطل ، لأن الإسلام دين ودولة معا .

ثانيًا : أرادوا بذلك أن يتخلصوا من كثير من أوامر الشرع ، ونواهيه بحجة أن تلك الأمور من أمور الدنيا وأن الرسول كان يجتهد وأن الزمان والمكان يتطلبان الاجتهاد في أمور الدنيا فحللوا بذلك الحرام ، وحرموا الحلال بتلك الحجة الواهية .

إن الرسول الكريم قد أوضح ، وبين كل ما يوحى إليه من ربه دون تأخير ، ووضع في ذلك القواعد ، والأسس لكي يسير المسلمون عليها ، فما كان في كتاب الله وسنة رسوله ، فهم ملزمون بالأخذ به ، وبتطبيقه ، والتسليم به بنفس راضية ، وبدون أي اعتراض ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّموك فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيتَ ويُسَلِّموا تسليمًا** ﴾[١] .

ومالم يكن في كتاب الله ، ولا سنة رسوله ، فللمسلم أن يجتهد رأيه في ضوء كتاب الله وسنة رسوله ، وحديث معاذ عندما أرسله إلى اليمن واضح الدلالة في ذلك فقد قال عليه الصلاة والسلام لمعاذ « بماذا تحكم يامعاذ ؟ قال : بكتاب الله : قال : فإن لم تجد ، قال : بسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ، قال : أجتهد رأي ولا آلو » .

فأقره الرسول صلوات الله عليه وقال : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله »[٢] .

ومادام معاذ قد اجتهد رأيه في ضوء الكتاب والسنة ، والسير على منولهما ، فقد أخذ بالكتاب والسنة كذلك ، وهو شيء مطلوب ، ويقره الدين الحنيف ، بل هو واجب ، ومن أصاب في اجتهاده ، فله أجران ، ومن أخطأ

---

(١) النساء آية ٦٥

(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة ، وأحمد .

فله أجر على اجتهاده كما جاء في الحديث [١] .

وقد ذكرنا في المقدمة طرقا عديدة سلكها علماء الإسلام تدل على سماحة هذا الدين ، ومحاسنه ومرونته ، وأنه يمكن تكييفه حسب الزمان والمكان كالأخذ بالعرف ، والاستحسان ، والمصالح المرسلة ..

أما الاجتهاد الذي يخالف الكتاب والسنة ، فذلك شيء مرفوض من أساسه بل هو كفر ، إذا تعمده صاحبه .

فمن اجتهد مثلا ، وقال : إن الصوم في رمضان يتعارض مع المصالح الحكومية والمصالح العامة ، فلا حاجة إلى صيامه ، أو أنه يجوز تأخيره من الحر إلى البرد ، ومن قال : إن صلاة الظهر تتعارض مع المصالح الحكومية ، والمصالح العامة ، فيجوز تأخيرها إلى العصر . أو قال : إن الاختلاط بين الجنسين لابد منه ، لأن الزمان قد تغير عما كان عليه ، فنحن في عهد الحضارة ، والرقي ، وذلك لابد منه ، أو قال : إن التعامل بالربا مع البنوك الربوية شيء يحتمه الواقع والضرورة ، فإن اجتهاده مردود عليه ، وباطل من أساسه ، بل هو كفر إذا تعمد ذلك .

لأن النصوص فيها واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، ولا تحتاج إلى اجتهاد ، وإلا لو كان الأمر كذلك لهدم الإسلام من أساسه .

وفي هذه الحادثة (حادثة التأبير) لم ينزل عليه الوحي لتصحيح اجتهاده عليه الصلاة والسلام في حينه حتى جاء العام القادم ، وأخبروه بما حدث فأجابهم أنه بشر مثلهم يجتهد في بعض الأمور التي لم ينزل بها وحي فيمكن أن يصيب ، ويمكن أن يخطىء في أمر من أمور الدنيا كما ذكرنا في هذه الحادثة وغيرها .

---

(١) رواه الجماعة .

وقد يقال : لماذا لم يصحح له سبحانه اجتهاده كما في المواقف السابقة ؟ الجواب : أن الله تعالى هو العالم بالحكمة من وراء ذلك التأخير ، ولكن فيما يبدو - والله أعلم - أن ذلك نوع من التمحيص للمؤمنين المصدقين برسالة نبينا محمد ﷺ ، ومعرفة مقدار إيمانهم برسوله ومصداقيتهم مع ربهم في هذا الموقف ، وغيره .

وهناك أمثلة تؤيد ما نقول : فمن ذلك :

١ - قوله تعالى : ﴿ **وإذْ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشَّجَرَةَ الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرًا** ﴾ (١) .

فقد ذكر المفسرون أن المقصود بالرؤيا هنا هو الإسراء من مكة إلى المدينة ، فقد ذكر سبحانه أنه أسرى بعبده تلك الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، ثم رجع إلى مكة في تلك الليلة ، فلما أخبرهم عليه الصلاة والسلام ارتد قوم من الناس بعد أن دخلوا في الإسلام . فكانت تلك فتنة لهم فقد كان ذلك بمثابة التمحيص ، والابتلاء للمؤمنين .

وسميت رؤيا ، لأنها وقعت بالليل ، أو لأن الكفرة قالوا لعلها رؤيا قد رآها في المنام .

أما الشجرة الملعونة ، فهي كما قال المفسرون شجرة الزقوم ، وهي طعام الأثيم في نار جهنم والعياذ بالله (٢) .

٢ - ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **لقد صَدَقَ الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون**

---

(١) الإسراء آية ٥٩ .

(٢) انظر فتح القدير ٣ / ٢٣٨ .

فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحًا قريبًا ﴾ [١] .

قال الواحدي : قال المفسرون : إن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ في المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كأنه هو وأصحابه حلقوا وقصروا ، فأخبر بذلك أصحابه ، ففرحوا ، وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك ، فلما رجعوا من الحديبية ، ولم يدخلوا مكة قال المنافقون : والله ما حلقنا ولا قصرنا ، ولا دخلنا المسجد الحرام . فأنزل الله هذه الآية وقيل إن الرؤيا كانت بالحديبية .

ولم يكن الامتحان والتمحيص صعبًا في تلك الرؤيا بالنسبة للمؤمنين فحسب ، وإنما كانت الشروط التي أمليت في صلح الحديبية إمتحانا صعبًا كذلك ، فقد كانت في ظاهرها ليست في صالح المسلمين وهي في صالحهم .

فكان من شروطها :

١ - أن يرجع المسلمون في ذلك العام ، وأن تقف الحرب عن الناس عشر سنين .

٢ - من أتى من المشركين بغير إذن وليه إلى المسلمين رده إليهم .

٣ - من جاء من المسلمين إلى قريش لم يردوه إلى المسلمين .

٤ - من أحب أن يدخل في عهد رسول الله دخل ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل .

وكان بين صلح الحديبية إلى عمرة القضاء سنة : حيث كان صلح الحديبية سنة ست ، وكانت عمرة القضاء سنة سبع [٢] وفي كل تلك الفترة كان امتحانًا

---

(١) الفتح آية ٢٧

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٢ / ١٣٤ وما بعدها .

وتمحيصًا للمؤمنين برؤيا رسول الله ﷺ ووعده إياهم بدخولهم مكة معتمرين ، هل ذلك سيحصل أو لا ؟

٣ ـ ومن ذلك تحويل القبلة في قوله تعالى : ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما وَلَّاهُمْ عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب ..** ﴾[١] فقد أخبر سبحانه نبيه بأن اليهود والمنافقين سيقولون هذا القول بعد أن تتجه يامحمد إلى استقبال القبلة مكة ، وترك استقبال بيت المقدس .

فكان أمر الله تعالى للرسول والمسلمين من قبل استقبال بيت المقدس ، ثم كان أمر الله تعالى إليهم بترك استقبال بيت المقدس واستقبال القبلة الكعبة بمثابة التمحيص والاختبار لهم .

كل هذه المواقف التي ذكرناها ماهي إلا بمثابة التمحيص والاختبار للمؤمنين ، لكي يظهر المؤمن الطائع على حقيقته ، والمنافق العاصي على حقيقته . ذكرنا ذلك على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر .

مما ذكرنا يمكن لنا أن نصل إلى حقيقتين مهمتين في التشريع الإسلامي قد غفل عنهما كثير من العلماء والباحثين :

الحقيقة الأولى : أن الرسول صلوات الله عليه كان يجتهد في بعض المسائل التي تتعلق بشئون الدنيا كغيره من البشر وقد يصيب ، وقد يخطىء ، ومثل ذلك إجتهاده في غزوة بدر الكبرى ، فقد نزل عليه الصلاة والسلام بأدنى ماء من بدر يبادر القوم إليه فجاء الحباب بن منذر بن الجموح فقال يارسول الله أرأيت هذا المنزل منزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » قال

---

(١) البقرة آية ١٤٢ .